على بوابات غزة.. يظهر الخزي العربي

بقلم: ساري عرابي...

تحضر مسألة الحرب كلما صعد الحديث عن إدخال المساعدات إلى قطاع غزّة، وإنقاذ سكانه من سياسة التجويع المضروبة عليهم بإحكام من إسرائيل وأمريكا؛ أمريكا صاحبة فكرة نقل عالم الـ"Dystopian" من أفلام الخيال العلمي، والأدب السياسي، وسينما ما بعد الكارثة، إلى محاولة تطبيقه في قطاع غزة، بواسطة المؤسسة المسماة "غزة الإنسانية"، وهي تجربة بدائية لفكرة "الفقاعات الإنسانية" التي تفتق عنها العقل الأمريكي/ الإسرائيلي الإجرامي، وتسربت إلى الصحافة في تشرين الأول/ أكتوبر الماضي.

بعد حظر إسرائيل لـ"الأونروا"، في سبق تاريخي؛ تحظر فيه دولة عضو في الأمم المتحدة، واحدة من مؤسسات هذه الأخيرة، بدأ التفكير في تشييد محميات مسوّرة ومغلقة ببوابات ضخمة في مناطق مختارة داخل قطاع غزّة لتوزيع الغزيين عليها وحشرهم فيها، على أساس المواقف السياسية والارتباطات العائلية، بحيث يضبط الدخول إلى هذه المناطق بأدوات بيومتريّة، مثل بصمة الإصبع، والقرنية، وتحرس هذه المناطق بقوات مدرّبة، وأسلحة فتاكة، تشرف عليها شركات خاصة. وهكذا تُشترط وجبة الطعام

بالموقف السياسي، وأمّا خارج هذه الفقاعات فهو عالم من الصحراء البائسة، التي تترنح فيها جوعا "حيوانات بشرية" تعطى فرصة مثالية لعمليات الصيد والقنص.

لم تُطبق الفكرة بهذه المثالية الإجرامية، والتي يبدو أنّها عبّرت في لحظتها عن خيال إبادي أبيض يحاول الاستثمار في المأساة الغزية؛ لاتخاذها نموذجا تجريبيّا لهندسة المجتمعات على أساس التحكم البيومتري، أو التعقب الإلكتروني، بيد أنّها دفُع بها من الولايات المتحدة، بهذا النحو الذي لا يقلّ دلالة على النخبوية النازية، والإحساس العميق بالسيادة على البشر، من خلال "مؤسسة غزّة الإنسانية"، وإن ظلت الفكرة قائمة في الخيال الإسرائيلي، وفي سجالات أصحابه، وعلى أوراقهم، من خلال ما يسمونه "مدنا إنسانية"، و"ممرات عبور إنساني"، وهي أفكار في آخر الأمر ترحب بها أمريكا، ليس فقط لأنّها تحبّ، وبنحو عاطفيّ مرضيّ غامض، أن ترى إسرائيل متفوقة وناجحة، إلى درجة أنّها -أي أمريكا- تنسب لها إنجازاتها، ولكن لأنّ أمريكا هذه دائما ما تحبّ المناطق الجديدة، التي يمكن فيها تجريب كلّ شيء، من الأسلحة، إلى تحقيق الأفكار العلمية ذات الطابع الخيالي، إلى تطوير أدوات ضبط البشر والسيطرة عليهم.

على أية حال، وبقطع النظر عن سياسات التجويع المقنن التي ترعاها أمريكا بهدف تأمين استمرار الإبادة دعائيّا، (وهنا يجب القول إن فكرة الميناء العائم، وإسقاط المساعدات من الجوّ، والمساعدات قليلة الكمية ومتباعدة الدخول، كلها تدخل في سياسات تأمين الإبادة وتغطيتها)، فإنّ فكرة من هذا النوع هي فكرة معادية جوهريّا للمعنى الإنساني، أيّ ما يميّز الإنسان من حيث الكرامة الآدمية وحرية الإرادة، وما ينبغي أن يكون عليه البشر من التساوي، ولن يكون غريبا، والحالة هذه، أن تسميها إسرائيل "إنسانية"، تماما كما تسمّي جيشها؛ جيش الدفاع، وكما تدّعي أمريكا أن حروبها الطاحنة لكرامات البشر؛ إنّما هي حروب من أجل تحرير البشر (هل يختلف هذا الادعاء الأمريكي في شيء عن وصف إسرائيل لجيشها بأنّه الأكثر أخلاقية في العالم؟!)، وكما تحاول أن تقنع نفسها في الإجابة على سؤال "لماذا يكرهوننا؟!" بالقول: "بسبب ديمقراطيتنا وحريتنا وأسلوب حياتنا"!

هذا الشرّ يتبين أكثر حينما يتحدّث بعض العرب، عن خطر الحرب كلما طولبوا بفعل شيء لإغاثة الفلسطينيين. لا يقصد هؤلاء العرب، بوضع الحرب مقابل لقمة العيش؛ بيان مستوى الإجرام الأمريكي/ الإسرائيلي في توظيف التجويع في سياق الإبادة الجماعية، ولكنهم يقصدون الاعتذار لعجزهم، أو امتناعهم عن إغاثة الفلسطينيين الجارية عليهم سياسات التجويع.

قديما كان الحديث عن التحرير العربي الحتمي في يوم ما لفلسطين، ثمّ صار الرجاء فيهم أن يدعموا

نضال الفلسطينيين، ثمّ نزل ذلك إلى الأمل في أن يدعموهم سياسيّا ويسندوهم اقتصاديّا. كلّ ذلك لم يعد قائما، بالرغم من ادعاءات باهتة عن كون هدف التحالف مع إسرائيل في إطار ما يسمونه "الاتفاقيات الإبراهيمية"؛ هو دعم الفلسطينيين، (وطبعا هذه نكتة مهينة وثقيلة الدم، ونوع من التهريج المنحط). الآن، وبعد 22 شهرا من الإبادة الجماعية، لم يعد يطالبهم أحد بوقف الحرب، ولكن بإدخال الطعام. إدخال الطعام ثمنه الحرب، والعرب لا يحاربون!

وإذا قال فلسطيني: "واغوثاه" وهو يطلب منهم إغاثته بالطعام؛ فلا بدّ من سَبِّه وشتمه، واستخراج عبارات عربية كلاشيهاتية باتت تستخدم بكثرة في السنوات الأخيرة، من قبيل وصف الاستغاثة بالمزايدة. على أية حال، مجرد أن يتخيل العربي، أنّ ثمن إطعام عربيّ آخر في جواره، تجري عليه الإبادة والتجويع، هو الحرب، فهذا بمجرده، أي بمجرد الخيال؛ دالّ على انعدام المعنى من الوجود العربي في هذه المنطقة، فدول كبيرة مغرمة باختراع مقالات العظمة عن نفسها، منعدمة النفوذ والدور والتأثير، بالرغم من أنّها مرتبطة منذ عقود بالسلام مع إسرائيل، وخادمة للمصالح الأمريكية، ومن لم يكن منها متصلا علنا بإسرائيل، هو فاعل لذلك في السرّ كما هو معلوم.

ما نقوله إنّ إسرائيل لا تبيد الفلسطينيين ماديّا فحسب، ولكنها تبيد الوجود العربي من جهة المعنى. وهو أمر غير مهم للنظام السياسي العربي الراهن، لأنّه نظام أصلا لا يفكر في المعنى كي يقيم له وزنا، ولكن يبقى أنّه فعلا لا أحد يطالب العرب بالقتال، ليس فقط لأنّ جيوشهم فاقدة للقدرة على هزيمة إسرائيل، وغير مبنية لهذا الغرض، وهو ما يعود بالسؤال عن المعنى مجددا، إذ ماذا تفعل هذه الدول طوال عقود ما بعد استقلالها؟ ولكن أيضا لأن الشعوب لا تريد هذا القتال، معلوم الثمن، فالهزيمة من بعد العام 1967 هي الفكرة الطاغية على الوعي العربي، والمجتمعات العربية غير مهيئة ولا مُعدة لتقبل الحرب والتكيف معها. وقد ثبت بما يسمى ثورات الربيع العربي وما بعدها، أنّ المشكلة ليست منحصرة في الأنظمة والحكومات.

إلا أنّه وفي الحقيقة، ومهما كانت إسرائيل طاغية، فإنّ كسر التجويع عربيّا ممكن، على الأقل يمكن إظهار العزيمة واتخاذ خطوات أكثر فاعلية وجدية لمحاولة كسر التجويع، وقبل ذلك وقف الإبادة، وهذا ما لا تفعله الحكومات العربية، ليس فقط لأنّ مصلحتها مشتركة مع إسرائيل لكسر المقاومة في غزة، ولكن أيضا لأن التفكير العربي مغلول بالقيد الإسرائيلي، فإذا كان الإسرائيلي يريد التحكم بفلسطينيي غزة بيومتريّا، فهو يتحكم بالحكومات العربية بالإيحاء والتنويم المغناطيسي!